أثر الاختراق الإعلامى فى المجال التربوى*

مقدمـــــة :

كنا نقرأ عن السوفسطائيون أنهم فئة من فلاسفة اليونان توافرت لديهم القدرة علـــى أن يسوق الواحد منهم الأدلة والبراهين على أن قضية ما تعتبر باطلة فى موقف ، ثم لا مانع لديـهم من أن يسوق أدلة وبراهين أخرى على أن نفس القضية تعتبر (حقا) فى موقف آخر ! وعندما كنا نقرأ هذا ، كان العجب وكانت الدهشة الممتزجتان بقدر من الاستنكار تغمرانا .

وها قد أصبحنا اليوم ، ونحن نودع القرن العشرين ، نرى (جهازا) يجمع الكثير مـــن المتناقضات ، فى وقت واحد ... إنه الإعلام :

- ففيه إمكانات خير عظيم يمكن أن يعم أفرادا وجماعات ..

وفيه كذلك إمكانات شر مستطير يمكن أن يذهب بأفراد وجماعات ..

- فيه ما يبث مظاهر الصحة والعافية فى الجسد الاجتماعى ..

وفيه ما يبث جراثيم المرض والوهن فى جسد الأمة .

- فيه ما يحول كثيرا من أبناء الأمة إلى ملائكة يسعون بالرحمة فى ربوع البلاد ..

وفيه ما يحولهم إلى شياطين يسعون فى الأرض فسادا .

منذ الأزل وهناك صراع بين بنى البشر اتخذ مظاهر شتى ، لكنه تجسد دائما فى صورة حروب ساخنة شهدتها ميادين قتال ، مورست فيها أضخم وأفظع وأبشع أساليب القتل والتدمـــير والتخريب .

ومنذ سنوات معدودة على أصابع اليد ، عندما تهاوت أضخم إمبراطورية شهدها العصـر الحديث ، بلا طلقة رصاص واحدة ، بدأت الأصوات تتنادى : الآن وقد ذهب مع الريح القطب الثانى فى الصراع الدولى ، لم يعد ثمة مجال للحروب ، ولتتوجه كافة الطاقات ، وكل القـدرات نحو مواجهة مشكلات كونية ودولية تهدد الجميع بشر عظيم .

فهل يعنى هذا ، غروب الصراع البشرى ؟

كلا .. إنه مستمر .. وسوف يستمر ..

فقط .. اختلفت الساحة ، واختلف السلاح ..

أصبحت الساحة هى عقول الناس وقلوبهم ..

وأصبح السلاح هو الكلمة والفكرة منطوقة أو مصورة أو منشورة على صفحات جريـدة أو عبر أثير إذاعة أو على شاشة تليفزيون !!

---

* فى ندوة عقدها معهد البحوث والدراسات العربية من ٢٣-١٩٩٦/١١/٢٤ بالقاهرة .

وبدلا من (قتل) أفراد ، أصبح الهدف هو سرقتهم ، لا فى صورة خطف ملمـــوس ، ولكن فى صورة تحويل مجرى شخصياتهم : فى التفكير .. فى التكوين .. فى الاتجـــاه .. فـــى المشاعر .. فى الميول .. فى (تربيتهم) .

تحفظات منهجية :

المطلوب إذن هو دراسة أثر الاختراق الإعلامى فى المجال التربوى فى الوطن العربـــى .. فهل هذا ممكن ؟

إنه ممكن على تخوم (الحد الأدنى) .. لكنه صعب عسير إذا جاوزنا هذا الحد الأدنى ، مسايرة لآمالنا وطموحاتنا ..

فالاختراق الإعلامى يتطلب دراسة للصحافة والإذاعة والتليفزيون ، لا دراســـة كتـــب وبحوث وتقارير وإنما عينات من كل منها ، وتحليل محتواها .. وهذا يشكل صعوبة بالغة ..

ثم أين ؟ فى الوطن العربى !! وحتى إذا قلنا : فى بعض بلدانه ، فإننا لا نكـــون بذلـــك تغلبنا على صعوبة اتساع المساحة المكانية ، التى تشكل صعوبة أخرى .

فإذا جئنا إلى (المجال التربوى) لنتساءل أيضا : فى الوطن العربى كله ؟ هـــل هـــذا ممكن ؟ ثم نتساءل مرة اخرى : فى أى جانب من جوانب (المجال التربوى) ؟ إننا نشير فيمـــا بعد إلى تحديد هذا المجال ، وسوف نجد أنه يتسع إلى درجة تكاد تشمل كل ما يكون الشـــخصية الفردية وكذلك الشخصية القومية ، فهل هذا ممكن ؟

إنه إذن جهد تنوء بالقيام به العصبة من أولى الهمة فى البحث العلمى ، خاصة وأن هـذا الجانب يحتاج إلى أدوات ومقاييس متعددة نحاول بها سبر أغوار المجال التربوى فى دراســـة ، بل دراسات ميدانية .. وكل هذا يحتاج لا إلى شهور ، وإنما سنتين أو ثلاث على أقل تقدير .

هل أحاول بذلك أن أتهرب من مسئولية البحث أو أستجلب العطف من القارئ حتى يغفر لى ما يحتمل واجده من صور نقص وأوجه قصور ؟

كلا .. وإنما هى لحظات صدق مع النفس .. ولحظة صدق مع القارئ ، حتى يزن مـــا سوف يقرأ بعدل وموضوعية .

إننا سوف نعتمد على " مخزون الخبرة الشخصية " : قراءة وبحثا ومشـــاهدة وســـماعا ومعاناة وممارسة وإشرافا .

سوف يصيح البعض بأن هذا المنحنى " ذاتى " ، والعلم " موضوعى " ..

لن أدخل فى جدل يحتاج إلى صفحات طويلة عما هو " ذاتى " وما هو " موضوعى " ، وإنما يكفينى هنا أن أشير إلى مقولة لأحد الباحثين يذهب فيها - بعد أن برهن كثيرا على أن "الموضوعية" ، فى مثل مجالاتنا الإنسانية أمل لا يدرك كلية - أن " الموضوعية " فى مثل هذه الحالة الحاضرة ، هى أن يصارح الباحث قارئة باتجاهه .

لماذا الإعلام خطير تربويا ؟

ظلت المدرسة قرونا طويلة تفخر بأنها الوسيط الاجتماعى الذى اخترعه المجتمع ، بعد خبرة استغرقت سنوات طويلة ، وأنها هى (الأمينة) على العقول والقلوب ، عقول الناشئين وقلوبهم ، تتعهدها بالتهذيب والتأديب ، عن طريق المعرفة المنتقاة ، ليتلقاهم المجتمع بعد ذلك ، عمدا بشرية يقيم عليها صرح المستقبل .

لكن ها هو (الإعلام) ، بصفة عامة ، و (التليفزيون) بصفة خاصة قد بدأ ، لا أن يدخل فقط منافسة مع المدرسة بل أصبح يتقدمها ويتفوق عليها ..

ترى ، ما الذى جعل الإعلام على هذه الدرجة من الفاعلية فى التكوين التربوى ؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل قد تقتضى (سياحة) داخل مقومات الإعلام وخصائصه ومميزاته ولكننا سوف نكتفى بهذه (الإشارات الموجزة) حيث سيقتصر حديثنا على (التليفزيون) ، باعتباره - وفقا للرأى الغالب - الأكثر فعالية والأقوى تأثيرا بين سائر وسائل وأجهزة الإعلام :

- فهو يمتلك شكلا جذابا لما يقدمه ، سواء فى اللون أو فى طريقة العرض أو فى السرعة ، وما يصحب ما يقدمه من موسيقى تأسر الوجدان ، وهو ما لا نراه فى المدرسة : فجلوس التلميذ فى الفصل بين زملائه ، وأمام سبورة ومدرس (شكل) لا يمتلك من مقومات الجذب إلا ما يترتب على (المناخ النفسى) و (المناخ الاجتماعى) السائد ، وهو كثيرا ما يكون سلبيا .
- وهو (تحت الطلب) طوال الأربع وعشرين ساعة الآن ، وطوال العام كله ، بينما المدرسة مقيدة بفترة زمنية ، فلابد من الاستيقاظ مبكرا ، والذهاب من أول حصة ، والاستمرار حتى يدق الجرس معلنا انتهاء آخر حصة فى زمن محدد ثابت . ولو تخيلنا مدرسة تقدم برامجها التعليمية طوال الأربع وعشرين ساعة ، ويمكن للطالب أن يحضر (الدرس) الذى يريد ، فى أى وقت ، ويترك المدرسة ليعاود الحضور فى درس آخر .. وهكذا ، لاختلف الأمر كثيرا ، ولكن هذا حلم يبدو أنه بعيد المنال .
- وهو على درجة من التنوع تعجز عن الإتيان بمثلها ، المدرسة بكل تأكيد . أنه تنوع فى المضمون ، وفى الأسلوب ، وفى الذين يحادثوننا عبر الشاشة . فيه سياسة وتاريخ وعلوم

وطب ولعب وموسيقى ودين وترفيه وأغانى وأفلام .. إلى غير هـذا وذاك ممـا يصعـب حصره . إن المشاهد هنا أمام مائدة تتسع باتساع (الحياة) ، بينما هو فى المدرسـة أمـام مائدة صغيرة : مدرسين معدودين على أصابع اليدين ، ومقررات ، بنفس المنطق .. حتـى المساحة المكانية ، فهى إذ تتسع فى التليفزيون باتساع الدنيا كلها ، تنحصر فى المدرسة فـى فصل لا تزيد مساحته عن أمتار محدودة وفى فناء أصبح يضيق مع الأيام ، يتسـع لبضـع مئات من التلاميذ فقط .

- ومشاهدة التليفزيون لا تتطلب جهدا .. بل استرخاء على مقعد أو أريكة ، وبملابس المـنزل وقد يصحب ذلك أكل وشرب وتبادل تعليقات مع آخرين ، وقيام وقعود حسب الضـرورة . وفى المدرسة التزام بجلسة معينة لا يغادرها التلميذ ، وفى وضع بعينه ، ويتطلب الأمر منه " مذاكرة " وحل واجبات وإعمال عقل من خلال تذكر وربط واستنتاج وتعميم ، مـع منـع الأكل والشرب وتبادل الحديث مع آخرين أثناء الدرس ، وبإذن ، ووفق نظام ، حتى يصبـح تبادل الحديث (مناقشة علمية) وإلا فالعقاب أمر وارد .
- ويجد الطالب نفسه ، وهو يتعامل مع التليفزيون يمارس حقا إنسانيا هاما وهو (الحريـة) ، يرى ما يري ، وقتما يريد ، وأينما يريد ، وبالكيفية التى يريد ، وللمدة التى يريد .

لكنه فى تعامله مع المدرسة " مسير " وليس " مخير " ، لابد أن يدرس علـى يـد (س) و(ص) من المعلمين ، ولا رأى له فى تغيير أحد ، ولابد أن يدرس هذا المقرر بعينـه بغـض النظر عن اهتمامه وميله ، ولابد أن يدرس هذا فى مكان بعينه وفى وقت محدد ولمدة محددة .

- وإذا رأى الطالب موضوعا على شاشة التليفزيون وسأله أحد بعد ذلك عما شاهد فوجد نفسـه ناسيا فلا لوم ولا عتاب . ومن هنا فلا يجد نفسه مضطرا لاسـتعادة اسـتماعه ، ولا أحـد سيكتشف أنه نسى ما شاهده إلا الشخص الذى سأله ، ولن يترتب على ذلك صعود وهبوط .

لكن الموضوع الذى يدرسه بالمدرسة ، الويل له لو نسى منه شئ ، فـهناك امتحـان ، ونتيجة تعلن على الملأ يترتب عليها رسوب ونجاح ، وتقدم أو تأخر .

- والجمهور الأكبر الذى يشكل " زبائن " التليفزيون ، أطفال محدودو الخـبرة ، متواضعـو النضج وهم لذلك أكثر تأثرا بما يشاهدون ، إذ يفتقدون فى كثير من الأحوال معايير الفـرز والفلترة التى تسمح لهذه الفكرة بالولوج إلى تكوينهم الفكرى ، أو يرفضوا أخرى .. معظـم ما يرونه مقبول وصحيح ومعقول ومطلوب .. وهنا خطورة ما بعدها خطورة .

- وأخيرا نأتى إلى ما هو أهم ، ألا وهو ما يعرضه (الآخر) (المغـــاير) ، ســـواء علـــى شاشات التليفزيون العربية ، أو عبر قنواته الفضائية . إنه ، فضلا عن كل ما ذكرناه ، آنفا ، يملك ميزات أخرى تضاعف من تأثيره :

- فهو (المنتج) لكثير مما نستهلك ، لا نقصد الأجهزة نفسها وما يتصل بها ، وإنمـــا نقصـــد العديد مما يقدم على الشاشة الصغيرة : نشرات الأخبار - أفلام - مسلسلات - برامج عليمـــة .. الخ . وإذا كان صحيحا أن (المنتج) يراعى دائما رغبات (الزبائن) ، إلا أن الأمر هنا سيختلف ، فهو لا ينتج ما ينتج من أجلنا نحن بصفة خاصة ، وإنما ينتجها لجمهوره الوطنى ولجماهير أخرى عديدة تشاركه أو تتعاطف معه فى النموذج الحضارى الذى يعبر عنـــه ، فضلا عما يستهدفه هنا من " اختراق " وتسيد " .
- وهو يصدر عن (ديموقراطية) نرى مظاهرها فى كثير من إنتاجه سواء فى حديثـــه عـــن متولى السلطة ، أو فى عرضه للعلاقات بين أفراد المجتمع ومؤسساته . والأكثر ممارســـة للديموقراطية يكتسب قدرا أكبر من التقدير ، ومن ثم تكون له قدرة أكبر فى التأثير .
- وهو يعبر عن (شعبية) واضحة ، ففى أخباره ، ربما يقدم خبرا خاصا بحريق وقـــع فـــى منطقة سكنية أو فى منطقة تجارية ، أو خبرا عن إضراب قامت به فئة ما ، علـــى أخبـــار تتصل بمسئولين كبار فى الدولة ، وهو بهذه الصفة يبرهن على أنه (صوت الجمـــاهير) ، حقيقة لا شعارا ، ومن ثم يعرف طريقه بسهولة أكثر إلى العقول وإلى القلوب ، فيوجهها فى الطريق الذى يريد !!
- وهو أكثر (صدقا) ، فهو يواجه مسئولى العمل التنفيذى بوجهات النظر المغايرة ، والآراء الناقدة ، لا تلك المسبحة بحمدهم ، الفخورة بتلقى التوجيه من مسئولين أعلى فى الســـلطة ، وهو قليل الاستخدام لأفعل التفضيل فى حديثه عن مجتمعه ومسئوليه ، ولا يخفى العيوب ولا يتجاهل السلبيات ، بل يبرز هذا وذاك ، ويقلل الحديث عن الإيجابيات ، ولا بخسا لجـــهود العاملين ، بل من منطلق (لا شكر على واجب) . والأكثر صدقا ، يكون عادة أكثر تأثيرا .

وهكذا تقوى احتمالية (الاختراق) و (التسيد) و (التأثير) ..

إن المسألة هنا تسير وفقا للسنن الإلهية الحاكمة لاتجاهات الرياح كما تنبؤنا بها علـــوم الجغرافيا والفلك ، فإذا كانت هناك منطقة فى شمال مصر على سبيل المثال بها منخفض جوى ، وكان هناك مرتفع جوى على جنوب أوربا ، فلابد وأن تندفع الرياح نحو شمال مصر .

كذلك ، فإذا انخفض مستوى ما تقدمه ثقافة بلداننا ، وارتفع لدى (الآخر) ، فلابـــد وأن نتوقع اندفاعا وهبوبا لرياح الآخر الثقافية نحونا .

تحديد المجال التربوى :

قد تبدو هذه المسألة فى حاجة إلى سطور محدودة فى نظر كثيرين ، لكنها بالنسبة لمن سار على درب التخصص المهنى والبحث الأكاديمى ، مسألة بحاجة إلى كتاب كامل !!

فالجمهور العام تكاد حدود المجال التربوى تتحدد عنده ببعض المسائل والجوانب الأخلاقية ، حتى أنها تترادف ، فى معظم الأحيان مع معنى (الأدب) السلوكى ، فتقول أن فلانا (مؤدب) = " متربى " إذا اتسمت سلوكياته بالأخلاقية العامة من حيث البعد عن فحش القول ، والتزام الصدق ، والأمانة ، وما سار على هذا الطريق .

وإذا كان هذا البعد الأخلاقى يعتبره المتخصصون جزءا هاما من (التربية) ، إلا أنه (أحد) العناصر المكونة لها .

ولكى نختصر الطريق على القارئ ، فإن الجمهرة الكبرى من خبراء التربية وعلمائها فى عصرنا الراهن يعرفون (التربية) بأنها (الحياة) .. فماذا نفعل فى الحياة ؟

- نحن - بالفطرة - لابد أن نأكل ونشرب ونلبس .. هذا صحيح ولكننا ، فى الوقت نفسه ، بحاجة إلى أن نتعلم كيفية إعداد ما لا حصر له من المأكولات والمشروبات ، ومعرفة خصائصها ومنافعها ومكوناتها وحاجة كل منا إلى كل نوع منها .

وللمأكل والمشرب عادات وتقاليد ونظم وأدوات وأجهزة تحتاج إلى تعلم لكيفية التعامل معها وهذا كله لا يتم إلا بتعليم وتعلم ...

وقل مثل هذا عن (الملبس) ..

- ونحن - بالفطرة - نولد مالكين لحنجرة وأحبال صوتية نستطيع أن نصدر بها أصواتا ... هذا صحيح

ولكننا نحتاج إلى تعليم وتعلم (شكل) تتشكل به أصواتنا فى (لغة) تكون هى وسيلة التواصل بيننا حتى نستطيع التفاهم والتعامل والعيش معا .

- نحن - بالفطرة - نخاف ونكره كل ما يهدد وجودنا ويعرقل طموحاتنا ، ونحب كل ما يعزز وجودنا ويسهم فى تحقيق طموحاتنا .

ومن هنا نكون بحاجة إلى تعلم مظاهر كل ما نخافه ويشكل خطرا علينا وخصائصه ودرجاته ومستوياته وكيفية التغلب عليه .

وعكس ذلك طبعا بالنسبة لما نحب ..

وهكذا نستطيع أن نستطرد فى كل شأن من شئون الحياة ، إلى الدرجة التى جعلتنا بالفعل نقول أن مجال (التربية) هو مجال (الحياة) .

ومن هنا فإن الصياغة العلمية المحددة للتربية تذهب إلى أنها تلك العملية التى عن طريقها نقوم (بتنمية) طريقة الحياة .. أو بمعنى آخر على المستوى الفردى أو بتنمية الشخصية على المستوى المجتمعى .

وبهذا يكون (المجال التربوى) هو فى الحقيقة (السلوك البشرى) .

ولأن المجال التربوى يصل إلى هذه الدرجة من الاتساع مما يجعل من العسير أن يكون موضوعا للتخصص يتخصص ويتفرغ له نفر من العلماء ، مثلما هو الأمر النسبة إلى الكيمياء والفلك و (التاريخ) ، وغيرها من تخصصات علمية ، اتجه جمهور المتخصصين إلى تركيز الاهتمام على ذلك الجانب المنظم المعرفى المهارى من التربية ألا وهو (التعليم) ، فهو يتم فى مؤسسات متخصصة (المدرسة / الجامعة) على أيدى متخصصين (معلمين) وفق برامج متفق عليها (مقررات) فى أوقات محدودة (جدول دراسى)

وللتربية مستويات ثلاثة :

- فى المستوى الأول : تتم التربية بطريقة آلية وكأنها " عدوى اجتماعية " ، فقد تعلمنا أن نعيش فى بيوت ، وأن نستر أجسامنا ، وتعلمنا أن هذه الحشرة مؤذية ، وأن هذا الحيوان مؤذ ، بدرجات مختلفة ، وتعلمنا أكل أصناف معينة من الطعام والأحجام عن أخرى .

تعلمنا كل هذا وغيره كثير بطبيعة الحال ، نتيجة لظروف اجتماعية وثقافية واقتصادية ، بدون مدرسين ، ولا مناهج ومقررات خاصة . إن الفرد يتعلم فى هذا المستوى بمجرد الاحتكاك بغيره وفى سياق التفاعل الاجتماعى ، ومثل هذا المستوى من التربية أساسى لإيجاد أنماط عامة مشتركة من السلوك تساعد على التماسك الاجتماعى والترابط بين الأفراد فى المجتمع الواحد .

- وفى المستوى الثانى نجد قدرا بسيطا من القصد والنية لتعليم فرد شيئا حتى يستطيع أن يسلك سلوكا معينا ، فوقوف (الابنة) مع أمها وهى تعد الطعام وتقوم ببعض الأعمال المنزلية تجد نفسها أمام فرصة تتعلم من خلالها هذا السلوك وذاك ، وبعض المعارف والمعلومات المتصلة به ، وتتعمد الأم عادة توجيه الابنة وإرشادها إلى العمل الصحيح وتصويب عملها وهكذا الأمر بالنسبة للصبى الذى يساعد (نجارا) أو (حلاقا) .. وغيرهما .
- وفى المستوى الثالث من التربية ، تنظم الخبرات التى يتعرض لها الأفراد تعليمهم أو تدريبهم أو لهما معا ، ولذلك تنشأ المدارس وتعد مناهج الدراسة ويعد المعلمون اللازمون للقيام بعملية التربية . وهذا النوع من التربية الذى نطلق عليه اسم " التعليم " يبدأ من دور الحضانة إلى المستوى الجامعى .

ولأن أجهزة الإعلام عامة والتليفزيون خاصة لها تأثير واضحا فى المستويين الأوليـــن سيتركز حديثنا التالى عنهما بصفة خاصة . صحيح أن ما يقدمه التليفزيون من برامج تعليميـــة يدخل فى نطاق المستوى الثالث ، لكننا نرتبط بما يقدم إلى (الجمهور) على وجه العمـــوم ، لا إلى (الطلاب) بصفة خاصة ، وذلك لأن التليفزيون بالنسبة للبرامج التعليمية إنما يكرر ما تقوم به المدرسة على وجه التقريب لأنه مقيد بالمحتوى ، وكل ما يضيفه هو (الشكل) و (الطريقة) وإن كنا لا ننكر تأثيرهما .

وهناك سبب هام وهو أن (الاختراق) إذا وجد فى البرامج التعليمية ، فـــهو اخـــتراق لجهاز التعليم أكثر منه اختراق للإعلام الذى هو موضوعنا الأساسى .

مظاهر اختراق

اجتهادا ، نستطيع ان نرصد فيما يلى نماذج وأمثلة يشير كل منها إلى اختراق واضح فى مجال له أثره المعروف فى تربية أبناء الأمة :

١- اللغة :

ليست اللغة مجرد وسيلة اتصال بين أبناء الأمة ، وإنما تتبدى فيها طريقتها فى الحيـاة ، ومنهجها فى التفكير .. تعكس ثقافة الأمة واتجاهاتها وآمالها وطموحاتـــها .. ســـجل تلخيـــص لمسيرة الأمة الحضارية ، بكل إيجابياتها وسلبياتها .

إننا أحيانا ما نرى فى داخل الأسرة الواحدة ، فى نفس الوسط الاجتماعى ، فى بلد واحد ، وزمن واحد ، أخوين احدهما - مثلا - شاءت له ظروفه أن يتعلم داخل نظـــام التعليـــم الدينـــى متخصصا فى اللغة العربية ، والآخر سار مسارا مغايرا فالتحق بكلية الآداب ليتخصـــص فـــى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، فإذا بنا نرى عقليتين متباينتين تماما .. شخصين متغايرين إلى حـد كبير ، حيث يتضح لنا بما لا يدع مجالا للشك أن اللغة هى المتغير الأساسى الـذى يقـف وراء التباين والتغاير .

من أجل هذا تحرص الأمة التى تعتز بهويتها وتنطلق فيما تملك من ذاتيتها ، على تعليم لغتها لأبنائها تعليما جيدا ، فتفرد لها مساحة زمنية واسعة لتعليمها كمقرر قائم بذاته وفضلا عـن ذلك ، فإنها تؤكد على ضرورة أن تعلمهم سائر المقررات الأخرى بنفس اللغة القومية .

لكننا نرى فى كثير من بلداننا العربية ضعفا واضحا فى اللغة العربية وإهمالا مزريا لها لا نستطيع أن نرجعه إلى أجهزة الإعلام وحدها ولكننا بكل تأكيد يمكن أن نقول بلا مبالغة أنـــها المؤثر الأكبر .

فالقطاع العريض من أبناء الأمة ، هم من الشباب الذين يشكلون لا مجرد كم ضخم يضم الملايين عددا ، ولكنهم - كما نقول ونؤكد دائما - هم الذين سيتولون بعد سنوات محدودة ، مقاليد الأمور فى سائر القطاعات ... هؤلاء أصبحوا مبهورين لا بعلماء أجانب كبار ، ولا بأدباء غربيين عظام ، ولا بأبطال سياسيين وراء المتوسط والأطلنطى ممن يتركون بصمات واضحة على صفحات التاريخ وإنما بهرتهم شخصيات أخرى ، بعضها نميز بصعوبة - إذا لم نكن نحن الكبار نعرفهم - بين أن يكونوا رجالا أو إناثا ، وبعض هذه الشخصيات (النموذج) ، غانيات تشكل مساخرهم مادة دسمة لصحف ومجلات تعيش على الفضائح وخاصة الجنسى منها .

وهذه النماذج (تغنى) ، فيهرع شبابنا إلى سماعهم ليل نهار ويرددون ما يسمعون فتألف آذانهم وتتعود ألسنتهم الكثير من العبارات والكلمات الأجنبية التى لا يمكن أن يدعى أحد أنها يمكن أن تشكل حصيلة تعينهم على متابعة المصادر الأجنبية للعلم .

وهم كذلك (يدمنون) مشاهدة ومتابعة الأفلام والمسلسلات الأجنبية بصفة مستمرة ..

ونحن يستحيل أن ننكر القيمة الفنية ، وجودة المضمون لعدد غير قليل من كل هذه الأفلام والمسلسلات ، لكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نتغافل عن كونها أحد العوامل التى تعزز الارتباط بلغة أجنبية . وهذا ليس أمرا سيئا فى حد ذاته ، فلقد كان أساتذتنا والأجيال التى سبقتنا تتعلم كل العلوم على وجه التقريب بلغة إنجليزية أو فرنسية بحيث يتقنونها كما يتقنون لغتنا العربية ، ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يقفون على أقدام راسخة فى اللغة العربية حيث كان هناك حرص على بدء التعليم فى (الكتاب) لحفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه ، فضلا عما غلب على لغة الصحف من لغة عربية سليمة ، والتغذى على كتابات أدباء عرفوا بأنهم أصحاب بيان وأهل بلاغة ، مثل د. طه حسين ولطفى السيد ، والعقاد ، والمنفلوطى ، والرافعى ، وزكى مبارك وغيرهم .

من هنا لم تكن هناك خطورة من معرفة لغة أخرى . هذا بالإضافة إلى أن هذه اللغة الأجنبية كانت تجئ كلغة فكر وكلغة علم ، وليست لغة مغنيات غانيات ومغنين راقصين ، وممثلين وممثلات يستخدمونها أحيانا للتعبير عن إغراء أو عنف أو تآمر .

وعندما تضعف اللغة العربية ، تضعف بالتالى القدرة على الاتصال بالموروث الثقافى العربى الذى هو وعاء الهوية . وفى المقابل يحدث العكس بالنسبة للغة الأجنبية ، إذ يسهل الاتصال بمصادر الثقافة الغربية وخاصة فى قطاعاتها السلبية .

وهكذا أصبحت الكلمات الأجنبية تشيع على الألسن ونحن نتكلم العربية ، ويصبح الاتجاه العام فى (التسمية) فى مختلف قطاعات الخدمة والإنتاج أن يكون الاسم مكتوبا بحروف عربية ،

ويكون ذلك معيارا للتقدم ، بحيث كلما كثرت الكلمات الأجنبية فى حديث فـــرد ، أوهـــم نفســـه وأوهم الآخرين أن ذلك مظهر تحضر .

٢- مفاهيم مراوغة :

كما أن التعامل الاقتصادى يقوم على (عملة نقدية) يتفق على قيمتها ، حتى إذا أصـــاب هذه القيمة اضطراب ، اضطرب التعامل الاقتصادى اضطرابا قد يؤدى إلى خراب ودمار بغـير قتال بالسلاح ، وبغير حرب ساخنة ، كذلك التعامل الفكرى فى الحياة الثقافية ، يقوم على (عملة فكرية) هى (المفاهيم) التى تشكل محاور أحاديث وقراءات وكتابات .

إن المواطن العربى يجد نفس غارقا فى بحر متلاطم الأمواج من الأحاديث والأخبـــار والمقالات والخطب والمؤتمرات ، تؤكد كلها معانى معينة لبعض المفاهيم التى كان يفهم لها مـن قبل معانى أخرى ، رددها كذلك كتاب كبار وسياسيون بارزون وأبطـــال تـــاريخيون ، وبيـــن المعنيين بون شاسع من العسير الاقتناع بالتبرير الذى يقال من أن متغيرات العصر هـــى التـــى أصبحت تفرض علينا المعانى الجديدة وإلا تخلفنا عن الركب السائر .

خذ مثلا مفهوم (الإرهاب) ، فلقد ارتبط فى ذهن المواطن العربى عبر عشرات بكـــل السنين بكل فعل بالقوة أو بغير حق يقوم به (الآخر) المستغل أو المحتل ، باعتباره عملا مـــن أعمال الإرهاب ، أما العمل الذى يقوم به مواطن من أبناء الأمة يقاوم به هذا الآخـــر المســـتغل المستعمر ، فإنه يعد عملا بطوليا يسجل له فى التاريخ .

لكنه أصبح اليوم يرى أعمالا يقوم بها مواطنون عرب ضد قوى احتلال شرس عنصرى ، هى التى توصف بالإرهاب ، يوصف القائمون بها بأنهم إرهابيون ، وتعقد المؤتمرات العالمية الكبرى ، وتتحمس لها نحن العرب لتعزيز هذه المعانى !!

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما يجرى على أرض فلسطين المحتلة كل يوم ، بل وكـــل ساعة .. لقد قتل الإسرائيليون فى أوائل العام الحالى (١٩٩٦) زعيمين من زعماء المقاومـــة الوطنية الفلسطينية ، فما احتج أحد ، وكان طبيعيا أن يحدث رد فعل من حركة المقاومة ، فقتلوا إسرائيليين ، فإذا بالدنيا تهتز ، ويتوافد رؤساء دول العالم لمؤتمر دعونا نحن إليه ، وعلى أرضنا ، حتى لا يتكرر ما حدث للإسرائيليين ، مع أن الأخبار تنقل إلينا مقتل عشـــرات الفلســـطينيين ، بصفة مستمرة ومعتادة .

و(السلام) أمل عزيز وغال لكل شعب ، وغاية غالية لكل فرد ، وهل ننسى أن تحيـــة الإسلام هى السلام ، إذ تبدأ بـــ " السلام عليكم " وحتى نضبط المفاهيم تغذينا كثيرا على مفـــهوم

(السلام القائم على العدل) ، فإذا بتيار متدفق من الأحداث والمؤتمرات والنشرات الإخبارية والمقالات تؤكد أن الرضا باغتصاب الآخر لجزء غال من أرضنا هو (سلام) باعتبار أن ذلك أمر واقع ، ونحن لا نملك القدرة على تغييره ، وأن العالم كله أصبح يقر هذا الوضع .

لكن هذا (الآخر) يستمر فى فعل ما يحلو له من مصادرة أراض ، ومماطلة فى تنفيذ ما اتفق عليه ، ويعتقل ، ويقتل ، ويحاصر ، ويهين .. فإذا ما استفز كل هذا قوى وطنية فعبرت عن استنكارها بمقالات أو كتب أو أحاديث ، وصفت بأنها ضد السلام !!

ولأن الانشطار الأخير إلى كتلة شرقية وأخرى غربية ، وما ترتب عليه من صراع قلم بين العالمين الاشتراكى والرأسمالى ، قد غربت شمسه ، تنادت أجهزة الإعلام لترديد أفكارا عن (التعاون المتبادل) و (الشراكة) و (العولمة) و (الكوكبية) .. وهى كلها مما يصدق عليه القول الشهير (قوله حق يراد بها باطل) ، فمن ذا الذى يكره التعاون ؟ ومن ذا الذى لا يريد التشارك ؟ الذى يؤدى إلى تبادل المنفعة وتجميع القدرات والقوى والجهود فى سبيل البناء ، وسعيا نحو التنمية والتطور .

لكن هذه المفاهيم يتبدل معناها تماما إذا تنبهنا إلى أننا ، كطرف ، نقف موقف ضعف بالغ .. نحن نستهلك ما ينتجون .. نحن لا نستطيع أن نفرض عليهم أمرا واحدا .. ونحن لا ننتج السلاح الذى ندافع به عن أنفسنا .. نحن نستورد منهم رغيف خبزنا !! إن هذه (العولمة) وتلك (الكوكبية) إنما تسير على منطق (الإلحاق) ، إلحاقنا كأسواق لمراكز الإنتاج ، وكمواقع متقدمة تقفز منها قوى كبرى إلى ميادين الصراع والمواجهة .. إنها علاقة تابع بمتبوع .. آكل بمأكول ، سيد بمسود !! هل يستويان مثلا ؟

ثم نجئ أخيرا إلى ما هو أدهى وأمر ..

المكتبة العربية ، والذاكرة العربية ، بها آلاف الكتب ، وآلاف الصفحات ، التى تعنى فيها زعماؤنا وكتابنا (بالقومية) ، لا بمفهوم عنصرى يتشرنق حول الذات ، وينظر إلى الأخرين نظرة عداء واستعلاء ، وإنما بمفهوم ثقافى يجعل من الناطقين باللغة العربية كتلة حضارية تتعاون وتتكاثف وتتآزر معا ، كى تنمو وتتطور وتدافع عن نفسها .

وداخل هذا الإطار تكون (الوطنية) لبنة هامة تجئ لتقوى وتعزز ، لا لتفصل وتغاير .. فرفعنا رايات الوطنية فى وجه الاستعمار والاستغلال ، فسارت دماء الشهداء أنهارا ، وحصلنا على الاستقلال .

فما بال نفر من قومى الآن يصدمون أعيننا ويسدون آذاننا بحجارة من سجيل يؤكدون لنا أن (القومية) و (الوحدة) و (الوطنية) إنما هى أساطير سياسية عششت فى أدمغتنا ردحا من

الزمن ، وإنها ربما ناسبت فترة مضت ، واستنفدت أغراضها ، وأصبحت الآن من مخلفات الماضى التى يجب إحالتها إلى (متحف) نتفرج على ما فيه فقط ، لكنها لا يجب أن تكون من مقومات حياتنا المعاصرة ، فضلا عن أن تكون آمالا لغد ، وطموحات لمستقبل ؟

ويصاب الصغار من أبناء الأمة ببلبلة مفاهيمية مفزعة .. أيها يصدقون ؟ إن هذا معناه الانقطاع المروع للخط التاريخى للأمة .. إن هذا معناه محو مفزع لذاكرة الأمة .. إن هذا فى النتيجة النهائية يلحقنا أتباعا بالآخر ، نأتمر بأمره ونفعل ما يريد ، وننتهى عما يكره ، وأمة تسير على هذا الطريق ، أمة ليس لها مستقبل !!

٣- الذات والآخر :

عندما يتعامل أبناء الأمة بعضهم مع بعض، يصدر كل منهم عن (ذات) ، لها ملامحها وخصائصها يحمل لها صاحبها ما يسميه علماء النفس " عاطفة اعتبار الذات " ، ومفهوم الفرد "لذاته" هو الموجه الأساسى لسلوكه مع الآخرين ، فعندما يكون فرد مقتنعا بأنه لا حول له ولا قوة ، وبأنه لا يستطيع أن يقرر أمرا حتى لو كان يخصه إلا بتوجيه الآخر ، لابد أن يختلف عن فرد آخر يثق بقدرته على اتخاذ القرار ،ويعرف أن لديه من الأهلية ما يمكنه أن يفعل كذا وكذا ، وأنه يفتقد الأهلية لعمل كذا وكذا .

كل ذلك مع افتراض ألا يكون (تهوين) و (تهويل) سواء بالنسبة لمفهومه عن ذاته أو مفهومه عن الآخر ، فلا يهون من قدراته الخاصة ولا يبالغ فى اعتبارها ، وكذلك فى نظرته لمن يتعامل معه .

وهكذا الأمر بين الأمم والمجتمعات ...

لقد أثر عن أحد الزعماء - مثلا - عندما سئل أن يمد يد التعاون إلى زعماء دول أخرى مجاورة ، أجاب متسائلا : كم يساوى حاصل جمع صفر + صفر + صفر ؟ الإجابة معروفة والنتيجة لا فائدة من التآزر والتضامن والتعاون !! صحيح أن ظروفا عدة كانت تحمل دلائل على صحة ما نسب إلى هذا الزعيم ، لكن المشكلة أن هذه المقولة أصبح كثيرون يرددونها مثل هذا الزعيم ، بل ويستشهدون بها وكأنها أصبحت (برهانا) و (حجة) تسرى أيضا على حاضرنا المعاصر الذى تختلف ظروفه اختلافا جذريا عن تلك التى دفعت هذا الزعيم إلى أن يقول ما قاله .

ومرة أخرى ، نحن نتحمل جزءا غير قليل من المسئولية .. لكن متابعة دقيقة لما تتضمنه برامج ومقالات أجهزة الإعلام نجد مفاهيم واتجاهات يحرص (الآخر) على بثها ،

تؤكد فى مجملها (تهوينا) من قدر ذاتنا العربية و (تهويلا) للذات الأخرى ، إسرائيلية أو غربية .

وليس بعيدا عن الذاكرة ، كيف استغلت أجهزة الإعلام ما حدث سنة ١٩٦٧ لتبث فى الأذهان فكرة أننا نواجه عدوا لا يمكن أن يقهر ، وأننا دائما وأبدا نهزم ، ونجح هذا التوجه نجاحا ساحقا حتى أصبح ، ولعدة سنوات ، وكأنه قد استقر عقيدة واتجاها ، ولم يهتز ويبهت إلا بعد أن حدث ما حدث خلال أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

وتكتب دراسات وتظهر كتب وتنشر قصص وتذاع ، تظهر التاريخ العربى وكأنه مسلسل تفرق وتناحر وتقاتل ومؤامرات ، حتى شاع فى الأذهان عند عدد غير قليل ، أن التاريخ العربى والإسلامى لم يشهد فترة مشرقة إلا فى عقود تقل عن أصابع اليد الواحدة ، فى عهد الخلفاء الراشدين وبصفة خاصة أبى بكر وعمر بن الخطاب .

ولم تكن الخطورة تتبدى فى أن يقول (الآخر) عنا ذلك ، وإنما كمنت الخطورة فى تصديق عدد من العلماء والمفكرين منا فأصبحوا يرددون تلك المقولات الزائفة المزيفة .

ولو استطاع باحث أو كوكبة من الباحثين أن تقتفى أثر صورة (الذات) فى كتابات عربية ، لوجدت صورا وأمثلة يصعب حصرها تشير فى مجملها إلى أننا قد أصبحنا ندمن عملية (جلد الذات) فليست صورة " الذات العربية " سيئة فى أجهزة الإعلام الغربية والإسرائيلية وحدها ، ولكنها كذلك لدينا نحن ، أصحاب هذه الذات !!

ويستحيل أن يزعم أحد أن أمة ما مغرمة بالإساءة إلى صورة ذاتها مثلما أنه من الصعب أن نجد نفس الشئ على المستوى الفردى ، إلا فى الحالات المرضية ، ولكن انبهارنا بالآخر وتسيده علينا وحرصه المستمر على أن يبث هذه الصورة السيئة لدينا جعلنا نصدق ذلك فنحقق له ما هدف إليه . ففقد الثقة بالذات ، والانبهار بالآخر ، أساس لابد منه حتى يتم التسيد وينجح الإلحاق وتضعف مسيرة وجهد التطوير والتقدم .

ولعل من أبرز ما يشير إلى ذلك ، هذا الذى يشيع بيننا فى مقولة " عقدة الخواجة " والتى تتبدى فى تفضيل الحاصلين على درجات علمية من دول أجنبية على الحاصلين عليها من دول عربية !! والتى تتبدى كذلك فى كل يوم ، وفى كل مكان ، عندما يؤكد بعضنا للآخر ، فى البيع والشراء السلعة الأجنبية لابد ان تكون أفضل مما ننتجه نحن ؟

وهكذا نرى مسئولين كبار أجانب عندما يتزاورون ، يحرص كل منهم على التحدث بلغة قومه حتى ولو كان يتقن لغة الآخر .. إنجليزية / ألمانية / روسية / فرنسية / صينية / يابانية / .. الخ . وفى الوقت نفسه ، نرى مسئولين كبار عرب إذا كانوا يتقنون الإنجليزية حرصوا على

التحدث بها وهم يتعاملون مع مسئولين أجانب !! إن هذا ليس مظهرا فقط للحرص على اللغة القومية عند من يتمسك بالتحدث بها ، ولكنه مظهر كذلك على مدى تقدير الذات ، ومفهومنا عن الآخر .

وفى يقيننا أن المسألة ليست مجرد " نعرة قومية " ولكنها " احترام للذات " ، ولن يحترمنا الآخر إلا إذا احترمنا أنفسنا . وما رأينا أمة استطاعت أن تبدأ الصعود على سلم النهضة وهى تحط من قدر نفسها وتعلى من شأن الآخر فى غلو ومهانة . إن خبراء العلاج النفسى يبدءون خطوتهم بإقناع المريض بأنه لن يبدأ طريق الشفاء إلا إذا وثق بذاته أولا ، لا بعمليات تفخيم مبالغ فيها ، ولكن بأنه قادر على التحرك إلى الأمام ، إذا عقد العزم وكثف الجهد وصحح المسار .

٤- القيم :

ولا نظن أننا نبالغ فى كثير أو فى قليل إذا قلنا أن القيم هى " العمود الفقرى " للمجال التربوى ، فإذا كانت المعرفة " تشكل قلب عملية (التعليم) وتتعلق بالعقل ، فإن " القيم هى لحمة السلوك البشرى وسداه ، ذلك أنها تشير إلى جملة المعايير الاجتماعية التى نحكم خلالها على هذا السلوك بأنه سليم ، فنغرزه ونتجه إليه ، وبأن ذاك السلوك خاطئ ، فندينه وننصرف ونتجنبه .

واكتساب القيم لا يجئ غالبا قصدا وبطريق مباشر وإما يجئ تدريجيا ، ومن خلال خبرات وتجارب شخصية أو عامة . وهى لا تجئ بالتلقين والتعليم ، وإنما تجئ ضمنا ، مصاحبة لصور أخرى ، قد تكون قراءة قصة أو مشاهدة فيلم سينمائى أو تليفزيون أو تمثيلية .

وهنا بالذات تتبدى خطورة أجهزة الإعلام عامة والتليفزيون خاصة ، فندرة الالتزام - على سبيل المثال - بالمواعيد المحددة للبرامج كما يعلن عنها ، ترسخ فى أذهان الناس وقلوبهم أن (الوقت) قيمة قليلة الشأن فى ثقافتنا !!

وسماع المواطن العربى نشرات الأخبار مرتبة وفق الأقدمية وليس الأهمية ، ترسخ فى ذهنه أن قيمته كإنسان تأتى فى مرتبة متأخرة بالنسبة للمسئولين .

وإعلان التليفزيون أن فيلم كذا سوف يذاع فى يوم كذا الساعة كذا ، ثم يفاجأ المواطن بفيلم آخر يرسخ لدى المواطنين أن قيمة الصدق مطاطة ، يلح عليها وتطلب فى مواقف ، لكن يمكن تجاوزها فى مواقف أخرى .. وهكذا .

والغريب حقا ، ونحن فى مجال تقصى أثر (الاختراق) ، أن نجد هذه النماذج التى أشرنا إليها من زرعنا نحن ، ذلك أن أجهزة إعلام الآخر ، ترسخ قيما عكس ذلك ، مما يشير إلينا بأننا نتأثر بالآخر فى سلبياته ، ونتجنبه فى إيجابياته !!

ولعل كثيرين منا يذكرون نموذجا لما يذاع مما يمكن أن يبث قيما تتصل بالجنس والأسرة تتناقض كثيرا مع ما نؤمن به فى موروثنا الثقافى والاجتماعى ، هذا النموذج هو مسلسل **The bold and the beautiful** ، فالزواج يمكن أن يتم بعد معاشرة بين الرجل والمرأة معاشرة كاملة ، وحتى بعد إنجاب طفل !!

وممارسة الجنس بين الرجل والمرأة جائزة طالما أن هناك رضى بين الطرفين . وهى تكون محرمة فقط إذا تمت إكراها للمرأة .

ويهنئ الأخ أخته بأنها أنجبت طفلا جميلا نتيجة معاشرتها لرجل متزوج امرأة أخرى !!

ولا مانع من أن يعشق الأب فتاة أحبت إبنه وأقامت بينه وبينها علاقة كادت أن تثمر طفلا ، لولا أنه مات قبل أن يرى النور .. إلى غير هذا وذاك من عشرات الأمثلة التى نشاهدها ثم نستنكرها ، مع إقرارنا بأن الذى نستنكره ، هو مما يباح فى مجتمع آخر ، لكن تكراره وسعة انتشاره ، وإذاعة ما يماثله فى صور وأشكال أخرى ، يمكن أن يصل بالأجيال الجديدة بصفة خاصة إلى الاستساغة التدريجية لمثل هذه القيم ، ومن ثم لا يرون ، فيما بعد ، ما يمنع من السلوك وفقا لها .

ولأن معظم الأفلام والمسلسلات الأجنبية أمريكية ، فمن حقها أن تعكس طريقة الحياة الأمريكية وإذا كانت هذه الطريقة قد وصلت بالمجتمع الأمريكى إلى درجات أعلى من مراحل التطور والتقدم ، إلا أن هذا ليس برهانا مؤكدا على أنها يمكن أن تلاقى نفس درجة النجاح إذا تبناها مجتمع آخر ، بل إننا نقول أن نجاح طريقة حياة مجتمع فى مكان نشأته تعتبر دليلا على أنها ستواجه فشلا إذا تبناها مجتمع أخر ، ذلك لأنه غنى عن القول أن موروثات الأمة الثقافية والاجتماعية التى شكلت طريقة تفكيرها ووجدانها تجعل من هذه الأمة تربة لا تصلح إلا لإنبات نماذج سلوكية تتواءم معها ، فلا يكفى - مثلا - إذا كنا نسكن منطقة مرتفعة صحراوية ، أن نعجب بالقطن لنظن أننا يمكن أن نزرعه .. هذا فى النبات ، وفى الحيوان ، فكيف لا ننتبه إلى أن السلوك الإنسانى هو الأولى بالنظر والاعتبار فى هذا الشأن ؟

وعلى سبيل المثال ، فقد اقتضت ظروف النشأة الأولى للمجتمع الأمريكى على أن يقوم على استخدام القوة : مهاجرون من قارات أخرى جاءوا إلى أرض جديدة بها ناس .. ليست

هناك معايير (الأصـــول) و (الحسب) و (الديـــن) ، وإنما هنـــا فقط منطق آخر : البقـــاء للأقوى !!

وتجئ أفلام كثيرة ومسلسلات تعكس قيمة كهذه ، فترسخ فى الأذهان أن هذا هو منطـــق العصر .. القوة فوق الحق ، لا الحق فوق القوة كما قال الزعيم الشهير سعد زغلـــول . ومـــن المحزن أن ترسخ الممارسات السياسة على الساحة الدولية هذه القيمة .

لكن المأساة أننا لا نتأثر بذلك على مستوى الممارسة السياسية تجاه (الآخر) ، بينمـــا بدأت تنتشر فى قطاعات كثيرة فى بعض المجتمعات ، قيم القوة ، ونحن بحاجة إلى العكـــس .. أن يعكس سلوكنا القومى ما قام عليه موروثنا الثقافى من قيم التكافل الاجتماعى والتراحم فيمـــا بيننا ، وأن تعكس فى تعاملنا مع (الآخر) قيمة القوة !! إنه لا ازدواجية هنـــا ، فـــهكذا نـــرى (الآخر) فى سلوكه معنا وفى سلوكه مع مواطنيه : يحيطون المواطن فى بلادهـــم بهالـــة مـــن التقدير والاحترام باعتباره إنسانا ، وفى نفس الوقت لا مانع لديهم ولا تهتز شعرة من رؤســـهم عندما يتسببون فى قهر آلاف من مواطنى العالم النامى ، بل يشاركون فى ذبحهم وتعذيبهم .

٥- نظم التعليم ومناهجه :

ولقد ساعد الانبهار بالأجنبى ، وتبنى العديد من معاييره الخلقية ، وضعف الثقة بـــالنفس مما رأيناه فى برامج إعلامية ، على أن يعود التعليم باللغة الأجنبية ليحتل عرشه الذى كان قـــد أجبر على التنازل عنه غداة الحصول على الاستقلال .

إننا نفرق تماما بين قضية (تعلم اللغة الأجنبية) وبين (التعليم باللغة الأجنبية) ، فنحن نؤمن بضرورة تعلم لغة أجنبية ، من منطلق الإقرار بأنه طالما ظل الغرب ، حتى الآن ، هـــو المنتج الأساسى للمعرفة ، فلابد ن معرفة لغته ، حتى يمكن أن نتواصل مع التطور المعرفى .

لكن أن نعلم كل المقررات بلغة أجنبية ، فهذا خلع لجلبابنا لندخل فى جلبـــاب الأجنبـــى دون أن نكونه حقيقة .

لقد كان آباؤنا وأساتذتنا يتعلمون باللغة الأجنبية مضطرين لأن المستعمر هو الذى كانت له السلطة ، فضلا عن ندرة الكوادر الوطنية ، وندرة الكتب العلمية المؤلفة بالعربية أو المترجمة إليها . ومع هذا فقد كان هؤلاء يستفيدون فعلا من هذه اللغة ، لأن الإقبال عليـــها كـــان بدافـــع الاتصال العلمى والتكنولوجى .

لكن ما عذرنا اليوم وقد أصبحت مقاليد الأمور بيد أبناء البلاد ، وقمنا بتعريب التعليـــم حتى قبل أن يحمل عصاه ويرحل ؟ هل فشلنا فى التعليم بالعربية ؟

إن الجمهرة الكبرى ممن يتجهون إلى التعليم بالأجنبية لا يندفعون إلى ذلك على سبيل الاتصال بالآخر علميا وتكنولوجيا ، ولكن بدوافع أخرى : دوافع سياحية ودوافع تجارية ودوافع نفسية !!

لقد توسعت أجهزة التليفزيون العربية توسعا كبيرا فى ساعات إرسالها وفى إقامة القنوات الفضائية ، وكثير منها لا يملك القدرة على مسايرة اتساع المساحة الزمنية بإنتاج البرامج مما يؤدى بالضرورة إلى الاعتماد أكثر على البرامج المستوردة ، هذا فضلا عن اتساع رقعة القادرين على التقاط البرامج التى تبثها القنوات الفضائية الأجنبية ، وكل هذا كان من العوامل التى ساعدت على هذا الإقبال غير المسبوق على التعليم بلغة أجنبية ، حتى أصبحت المدارس تتفاخر بذلك ، وإلى الدرجة التى جعلت مدارس ترفع اللافتة الإسلامية ، تعلن لزبائنها كذلك أنها تعلم بلغة أجنبية .

إننا نعلم أن الإعلام لا يمكن أن ينفرد بالمسئولية هنا ، فمستوى التعليم الذى تقدمه مدارس الدولة نفسها يشارك فى ذلك ، وغير هذا وذاك من العوامل ؟، ولكننا نشير هنا إلى أن الإعلام يعزز هذا الاتجاه ويؤكده .

منذ أن بدأت بعض البلدان العربية فى عقد اتفاقيات (سلام) مع الدولة الإسرائيلية بدأ الإعلام ، فى بعض برامجه يتخلى عن استخدام كثير من المفردات التى كانت بالأمس تشير إلى " الصهيونية " و " العدو الإسرائيلى " و " الدولة العنصرية " ، وغير هذا وذاك من المفاهيم والمصطلحات .

وكان لابد لجهاز التعليم أن يتسق مع ما يقدمه الإعلام ، فإذا بموضوعات تختفى ، كانت تحتويها المقررات تكشف عن التاريخ الطويل للنزعة العدوانية عند اليهود ، بل أن آيات القرآن الكريم التى تكشف عن سوء أخلاقهم وغدرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقضهم الدائم للعهود ، أصبحت لا تدرس !!

بل لقد وصل الأمر فى بعض الأحوال إلى التحدث عن معركة أكتوبر بغير تأكيد على أن الإسرائيليين كانوا يحتلون أجزاء عزيزة من بلادنا ، وأن هذه الحرب كنت تهدف إلى طردهم منها ، حتى لقد لفت هذا أنظار كثير من صغار التلاميذ فبدءوا يتساءلون : من هم الذين حاربناهم ؟ ولماذا ؟

وعندما أذاعت قنوات تليفزيونية كثيرة المسلسل الفنى الشهير عن (رأفت الهجان) ، وحاز إعجابا شديدا وإقبالا منقطع النظير ، لاحظنا نحن المشتغلون بالعلوم التربوية والنفسية أن المسألة لم تكن مجرد إتقان عمل فنى من قبل الممثلين أو المخرج ، ولم تكن مجرد حبكة

قصصية وغموض تشتهر به قصص الجاسوسية مما يجذب المشاهدين والقراء عادة ، ولكنها تتصل بمشاعر وطنية لا تجد فى الساحة ما يغذيها ، فأحببت هذا العمل ، بل وعشقته وأحاطته بهالة من الإعجاب ، دلت على أن القلب العربى ما زال يشعر بأن الوجود الإسرائيلى غير تاريخى ، وبأن العمل لمقاومته وكشفه عمل وطنى .

لكن الخوف كل الخوف هو على الأجيال الجديدة ، فلقد اشترك كاتب هذه السطور فى مناقشة رسالة دكتوراه عن موقف طلاب الجامعة فى مصر من الصراع العربى الإسرائيلى ، وكان من الأسئلة التى وجهها الباحث إلى عينته من هؤلاء الطلاب ، عن معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، فإذا بغالبية هؤلاء يظهرون جهلا بها . ولأول وهلة هالنى هذا واستنكرته استنكارا شديدا إلى الدرجة التى شككتنى فى بداية الأمر فى أداة البحث وفى النتائج ، ثم إذا بى ، وبعد تفكير وتأمل ، أتذكر أن هؤلاء الطلاب هم تلك الأجيال التى ولدت بعد هذه الحرب المجيدة ، أى أنهم ممن تعرضوا لعمليات غسيل مخ ، سواء من أجهزة الإعلام أو التعليم ، فكانت هذه النتيجة المؤسفة .

٦- تشكيل العقل والتفكير :

وعلى الرغم من الكثير الذى يردده علماء التربية وخبراؤها المعاصرون من أن العمل الأساسى للتربية هو تغيير السلوك ، كما رددنا نحن أنفسنا فى الدراسة الحالية ، إلا أننا لا نستطيع أن ننسى تلك المقولة التى تذهب إلى أن كل حركة يخطوها الإنسان إنما تبدأ فى العقل أولا ، بمعنى أن الإنسان " يفكر " أولا ثم يسلك . ولا نقصد بذلك أن نحسم الجدل الدائر بين عدد من الفلاسفة حول أيهما أسبق ، الفكر أم الواقع ذلك أننا نؤمن كذلك بأن السلوك والتنفيذ وحركة الواقع تعود بدورها لتوحى للإنسان بفكره ما .. وهكذا .

ولا نريد أن نستطرد فى سطور وفقرات كثيرة نؤكد بها أهمية العقل والتفكير بالنسبة للإنسان ، فذلك كله مشهور ومعروف ، ومن هنا كان الاهتمام فى العمل التربوى بتنمية العقل ، وتوجيه التفكير ، حتى فى التدريبات العملية ، نجد أننا نسعى إلى (تقييد) التفكير بمعطيات الواقع ، كى لا يجمح إلى آفاق لا يستطيع معها أن يترجم ما يصل إليه ، إلى حركة تغيير فى واقعه .

من أجل هذا أصبح العقل ، وأصبح التفكير كوظيفة له ، ساحة على جانب كبير من الخطورة ، يدير (الآخر) على أرضها رحى معركته التى يسعى بها إلى أن يحتل عقولنا ، ومن ثم يوجه تفكيرنا .

إنه يدرك تمام الإدراك أن متغيرات العصر قد جعلت الشعوب لا تتحمل أن ترى على أرضها جنودا مستعمرين .. حسنا ، فكما أن التعليم قد عرف صيغة تجعل من الممكن أن نعلم الناس فى مواقع عملهم ، وفى الزمن المناسب لهم ، وبالبرامج التى تسد احتياجاتهم فى دنيا العمل والأسرة والمجتمع ، وذلك من خلال ما يسمى (بالتعليم من بعد) كذلك وفرت أجهزة الإعلام لقوى الهيمنة والبغى الكبرى ، الطريق إلى ما يمكن أن نسميه (الإمبريالية من بعد) ببث أفكار بطريقة غير مباشرة فى برامج ومسلسلات من شأنها أن تجعل عقول المشاهدين تفكر فى الاتجاه الذى يراد لها من الآخر .

ولعل ما أشرنا إليه فى جزء سابق ، بالنسبة لترويج معان معينة لمفاهيم مركزية توجه سلوكنا ، من أبرز الأمثلة التى يمكن أن نسوقها لإيضاح ما نقول .

وكذلك ما بيناه فيما يتصل بمفهوم (الذات) ، ومفهوم (الآخر) ، مثال ثان يسير على نفس الطريق .

بالأمس ، ومنذ عشرات السنين ، كانت قوى البغى تلجأ إلى الإغراء بالمال (لتشترى) بعض الناس ممن ترى أنهم سوف يكونون فى مواقع مهمة ، لتضمن بذلك (ولاءهم) وانصياعهم لما يريدون ، ولقد أصبحت تلك وسيلة ممجوجة ومكشوفة ، وها قد ظهرت الأجهزة الجبارة التى يمكن أن تضمن بها قوى البغى ، لا شراء أفراد معدودين ، وإنما جماهير عريضة تدفعها إلى أن تفكر فى الاتجاه الذى يراد لها وتتعاطف مع المعتدى وتستسلم فى رضى ،للباغى ، وترضخ فى قنوط للمهيمن !

إن أخبارا بعينها تصاغ بذكاء شديد ، تطيرها وكالة أو أكثر من وكالات الأنباء (الدولية) وتكرار مثلها بصيغ أخرى على فترات مختلفة ، يمكن أن يكون لها فعل السحر فى توجيه ملايين من المشاهدين لكى يعتقدوا أن نظاما سياسيا ما مشبوه وإرهابى وديكتاتورى ومخرب ويكون مكروها وخطر على قوى البغى والاستغلال ،ويمكن أن يحدث العكس بطبيعة الحال ، فتذاع أخبار وتقارير تجمل صورة نظام ، ترى قوة البغى أنه (متعاون) و (حليف) !!

٧- التذوق الجمالى :

ويدرك علماء التربية وخبراؤها أن (الجمال) قيمة مركزية بهذا العالم الداخلى الكامن وراء ما يظهر من الإنسان من سلوك أو تفكير .. عالم الوجدان والعواطف الذى يمكن أن يطغى على التفكير فيلونه بهذا اللون أو ذاك ، كما يمكن أن يكون طاقة مذهلة يوجهها العقل فى اتجاه البناء والإبداع والابتكار والتطوير .

إن الله عز وجل ، وهو يعدد نعمة على البشر ويشير إلى عدد من الدواب ، محصيا بعضا من منافعها ، نجده يؤكد على البعد الجمالى ، وحتى وهو يتحدث عن ذلك الإجراء الممقوت الذى قد يصل بطرفى العلاقة الزوجية إلى " الهجران " ، ويطلب عز وجل أن يكون "هجرا جميلا" !

إن هذا إن دل على شئ ، فإنما يدل على أن (الجمال) هو لغة الروح الإنسانى ، بل هو لغة الكون وروحه ، وإنه يجعل الحياة ممكنة ومحتملة ، بل ومرغوب فيها .. إنه مصدر تلك المتعة لا التى تقارن باللذة الحسية ، وإنما التى تسرى فى خلايا الوجدان وكأنها نور داخلى يضئ أرجاء النفس البشرية ، فيجعلها ترى ما لا عين رأت وتسمع ما لا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

من هنا تجئ العملية التربوية لتبث القيم الجمالية من خلال مظاهر ووسائل عدة تأتى فى مقدمتها بطبيعة الحال مقررات الرسم والموسيقى والأشغال ، وما ماثل هذا وذاك .

لكنا ندرك فى الآن نفسه أن التربية الجمالية يمكن أن تتخلل مواقف أخرى كثيرة : فى الشعر على سبيل المثال .. فى النظام .. فى النظافة .. فى الكلمة الطيبة .. فى المعاملة الرحيمة فى المظهر الحسن .. وهكذا .

وهنا نجد أيضا الإعلام ساحة ربما تتفوق على جهاز التعليم . ولو سقنا مثالا لهذا الطوفان من الموسيقى الزاعقة والأغانى الصارخة وما يصاحبها من قفز وحركات عجيبة وإثارة للغرائز لإدركنا إلى أى حد يمكن أن يهبط هذا الطوفان بأذواق أجيالنا الجديدة ، بل لقد أدى شيوع هذا الطوفان وشدته إلى أن يقتفى الجيل الجديد من الذين يغنون الأثر الأجنبى ، فيقدمون مسخا من الموسيقى والغناء يستطيع الملاحظ المدقق أن يرى كيف يؤدى هذا بالمستمع إلى أن يهز نصفه الأسفل ، بينما مستمع الأمس ، عندما كان يشعر بمتعة من طرب ، كان يهز رأسه .. هنا حركة لمنطقة التفكير ، وهناك تحريك لمنطقة الشهوة !!

ولا نمل من تكرار هذه المقولة التى سبق أن أشرنا إليها عدة مرات ، وهى أننا لا نلقى المسئولية على (الأخر) وحده ، وأبسط ما يمكن أن ندلل به على ذلك ، أن ما تعرضه أجهزة التليفزيون العربى من برامج أجنبية ، وهم لا يفرضونها علينا ، فنحن الذين نختارها ونشتريها .

بل إننا بالنسبة إلى ما تنتجه محليا ، كثيرا ما نفعل مثل هذا الذى أخذناه على (الآخر) ، وعلى سبيل المثال ، فقد شهد المسرح العربى فى مصر فى أواخر الخمسينات ومعظم الستينات عددا كبيرا من المسرحيات ذات المستوى الرفيع ، تحمل مضمونا اجتماعيا على درجة عالية من العمق ، وفى قالب يجعلها مستساغة ومقبولة ، لا تنفر المشاهدين ، وعندما يعيد التليفزيون

مسرحيات سابقة لا يختار إلا تلك المسرحيات الضاحكة التى تفتقد أى مضمون اجتماعى ويكررها بصورة مملة ، لكنه ، أبدا ، لا يعرض لنا (الفرافير) ليوسف إدريس و (الفتى مهران) و (وطنى عكا) لعبد الرحمن الشرقاوى ، و (الناس اللى تحت) و (الناس اللى فوق) لنعمان عاشور .

إنه يعرض ما يدغدغ الأحاسيس الفجة ، ويعرض عن عرض ما يوقظ الوعى .

الخاتمـــة :

ولعلنا ونحن نطوى الصفحة الأخيرة من هذه الورقة ، بحاجة إلى الإجابة عن ذلك السؤال الذى يفرض نفسه علينا : ثم ماذا ؟

الحق الذى لا جدال فيه ، هو أن التفاعل الحضارى أمر وارد ، بل هو سنة من سنن الله فى المجتمع البشرى ، فما وجدت حضارة إلا وتأثرت بما قبلها وأثرت فيما بعدها . ومن ثم فليس هناك من بأس فى التأثر بما يصل إليه (الأخر) من ثمرات حضارية ونتائج ثقافية .

لكن المشكلة الكبرى تكمن فى غياب الوعى لدى كثيرين فى التفرقة بين موقفين :

موقف نملك فيه القدرة على الانتقاء والاختيار ..

وموقف نكون فيه مستقبلين ، وكأننا أمام طوفان جارف لا قبل لنا فى مقاومته .

وفى تقديرنا أن أجهزة إعلامنا - من الناحية النظرية - تملك القدرة على الانتقاء والاختيار ، لكن تبرز مشكلة أخرى هنا ، وهى مدى الطمأنينة إلى توافر " الأمانة الوطنية " و " الحس القومى " ، فيمن ينتقون وفيمن يختارون .

إن أجهزة إعلامنا ، فى مجملها ، مملوكة للدولة ، وبالتالى فهى محكومة بالسياسة العامة القائمة ، وهكذا نكاد نجد أنفسنا نسير على طريق ملغوم حقا .

ولو طالبنا بأن يعرف التوجه نحو (الخصخصة) طريقه إلى أجهزة الإعلام ، وخاصة المسموعة والمرئية ، فلربما نقع فى محظور آخر ، عندما تقع هذه الأجهزة فريسة (تجار) يفتحون الأبواب لطوفان آخر ربما يكون أكثر سوءا وأشد وطأة .

الحق أننا لو كنا نملك " مشروعا قوميا " يمثل خريطة عامة لمستقبل الأمة ، لربما كان ذلك يمثل ضمانا معقولا ، على ألا نفهم من (المشروع القومى) أنه صورة من صور الأيديولوجيات الشمولية ، التى تتحول ، فى الممارسة الفعلية إلى ستار لعودة القهر والبغى وتأميم العقول .

فإذا ما جئنا إلى الشق الثانى من القضية التى بدأنا بها فسوف نجد أننا بالفعل أمام طوفان من القنوات الفضائية الأجنبية لا قبل لنا بالوقوف فى وجهه ، وكل محاولات المنع والتحريم ، إنما هى محاولات فاشلة ، فضلا عن افتقادها للمشروعية العقلية .

إن الحل ليس مجهولا ، وهو لا يخفى على أحد .. إنه نفس القاعدة الاقتصادية فى المنافسة فالزبائن تقبل على الأفضل بطبيعة الحال ، ومن هنا فلا يجوز لنا أن نقدم (غثاء) ، ثم نطلب من الناس أن ينصرفوا عما يقدمه (الآخر) ، مما هو ممتع وجذاب ومشوق ومفيد .

إن المسألة هنا شبيهة بهذا التساؤل المصيرى الشهير : نكون أو لا نكون ؟ فهل نحن جادون حقا فى المواجهة ؟ إذا فهذا هو الطريق الوحيد المعروف .. أن نكون نحن ولا نكون مسخا .. ولن نكون (نحن) حقا إلا باكتساب حد من (المناعة) يمكننا من استقبال ما يؤدى إلى القوة الذاتية ومقاومة تسلل الميكروبات الثقافية . وهذا الحد للمناعة يكون بارتفاع منسوب الإنتاج المتميز القائم على عقول وسواعد أبناء الأمة .

وجهاز التعليم لا ينبغى أن يقنع بكيل الاتهامات للإعلام بأنه يهدم ما يبنى ، فلو كان ذلك صحيحا فلابد أن يكون المبنى هشا ،ولو أنه راسخ الأساس ، وطيد الأركان ، ، شامخ الارتفاع ، قوى الجدران ، فسوف يكون عصيا على الهدم .

إن ارتفاع مستوى الخدمة التعليمية التى يقدمها جهاز التعليم يمكن ، إلى حد كبير ، أن يعين على وقف تيار الاختراق ، وإبطال مفعوله .

نحن نعترف هنا بأننا لا نأتى بهذا الذى نقوله بجديد تماما ..... فلماذا التكرار ؟

نكرره ونردده لأنه لم يعرف طريقه إلى الواقع والتنفيذ ، وكل يوم يمر دون أن يحدث هذا فإنما يتضمن إعلانا على أننا نقول بأفواهنا ما ليس فى قلوبنا :

" يا أيها الذين أمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون "

الصف / ٢-٣ .

المراجـــع

- جون ديوى : الديموقراطية والتربية ، ترجمة نظمى لوقا ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- جون ميرال ورالف لوينشتاين : الإعلام ، وسيلة ورسالة ، ترجمة مساعد خضر الحارثى ، دار المريخ ، الرياض ، ١٩٨٩ .
- فتح الباب عبد الحليم وإبراهيم حفظ الله : وسائل التعليم والإعلام ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- حسين حمدى الطوبجى : التكنولوجيا والتربية ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٨ .

- سعيد إسماعيل على : التعليم والإعلام ، مجلة عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، المجلد الرابع والعشرون ، العددان الأول والثانى ، ١٩٩٥ .
- مكتب التربية العربى لدول الخليج : ندوة (ماذا يريد التربويون من الإعلاميين) ، الرياض ، ١٩٨٦ .
- ويلبورن شيكرام وآخرون : التلفزيون وأثره فى حياة أطفالنا ، ترجمة زكريا سيد حسن ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، د.ت .
- مكتب التربية العربى لدول الخليج : الإعلام التربوى فى دول الخليج العربية ، الرياض ، ١٩٩٢ .
- ليلى العقاد : نحو جامعة عربية مفتوحة عبر الشبكة الفضائية العربية ، اتحاد الإذاعات العربية ، ١٩٨٠ .